دماء الشهداء

شهيدان في كفن

للأستاذ عمر عودة الخطيب

« في تاريخنا الزاهر ، دماء زكية خالدة ، خطت آيته الكبرى ، ورسمت حدود عالم إسلامي واسع » ع

— ١ —

قال « عمرو بن الجموح » لصديقه الوفي الحميم « عبد الله بن عمرو » : —

— هل أتاك يا عبد الله حديث النبي الذي ظهر في مكة ... وأقبل عليه الناس من كل فج ، يجتمعون إليه ، ويؤمنون به ، ويعاهدونه على أن ينصروه ويؤازروه ، ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ؟

— أجل : لقد وفد على « يثرب » منذ أيام رجل من هؤلاء ما سمعت بمثل حديثه وما رأيت أكثر جرأة منه ... كنت أجلس إلى جواره ، وكان المجلس حافلا .. وقد اجتمع الناس ليعلموا نبأ هذا النبي الذي سفه آراء قومه ، وعاب آلهتهم ، ثم لما عارضوه وآذوه ، وقف في وجههم صابراً ثابتاً ... لا تهده النكبات ، ولا تثنيه الأزمات ...

قال الرجل : إني رسول « محمد » إليكم ، محمد رسول الله الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ، وهو يدعوكم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ هذه الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ، ثم تعكفون عليها ، وتقدمون القرابين لها ، وتهملون عقولكم أمامها ، إن لهذا الكون خالقا مدبرا حكيما ، بيده مقاليد الأرض والسماء ... وهو الذي يقول لكم « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ... »

قال « عمرو بن الجموح » وقد ثارت حفيظته عندما سمع حديث ذلك الرجل :

— ماذا قلت له « يا عبد الله » ؟ ! وماذا قال له الناس ؟ ! أحسبكم ضربتم عنقه ، وأعدتموه إلى من أوفده ، ليكف عن غزو « يثرب » بمثل هذه الأفكار ، فنحن هنا إلى جوار « اليهود » ، ولو كنا متخذين غير ديننا ، لكان دين « يهود » أقرب إلينا ...

قال عبد الله :

— كلا ... يا عمرو : لقد أراد الله الخير بنا ، إذ بعث لنا رسولا من أنفسنا ، من خير قبائلنا ، وأشرف بقاعنا ... يتلو علينا الكتاب بلسان عربي مبين ، لقد آمن به الناس وآمنت ، وأكرموا رسوله وأكرمت ، وعاهدناه على الطاعة والوفاء ... ومن فضل الله علينا أن كان أكثر من في المجلس من شباب يثرب ، ومن أعرقهم نسبا ، وأكرمهم أبا ، وأرفعهم عودا ، وأكثرهم يداً ، يا عمرو ... لقد آمنت بمحمد ... وآمن به ابني جابر ، وآمن أبناؤك معاذ ومعوذ وخلاد ، فأسرع إلى النور ، واعتصم بحبل الله ، واستظل براية الإسلام ، قبل أن يسكت اللسان ، وينطق الحسام ...

صعق « عمرو بن الجموح » لهذا الخبر ، فاسودت الدنيا في عينه ، وذهل عن نفسه ، وأصبح يهذي كالمحموم ، ربي ، وحقك ، لا أتركك ، ولن أدع يدا تمسك ، وسوف أحملك إلى بيتي وأعبدك

— ٢ —

تحت جنح الليل والناس نيام و « يثرب » تحلم أحلامها العذاب بعد أن انسابت إلى كثير من بيوتها أشعة طاهرة من ذلك النور الإلهي الذي توهج في مكة ، خرج ثلاثة إخوة جمعت بينهم وشائج الدم ، وأواصر العقيدة ، ووحد بين قلوبهم هدى السماء ، وتعاقدوا على الفداء ، ساروا في أزقة المدينة بخطى وئيدة ، ونور إيمانهم يسعى بين أيديهم ، وكان همسهم الخافت ، وحذرهم الشديد ، يدل على أنهم خرجوا لأمر ذي بال

طرقوا باب جابر بن عبد الله فلباهم ، قال معاذ :

— هل لك إلى خير وثواب جزيل ؟

— أجل ما أحوجني إلى ثواب الله وخيره العميم فماذاك ؟

— هلم إلينا فإن يد الله على الجماعة

تكاثر الفتية المؤمنون من بني سلمة قوم « عمرو » وفي طليعتهم معاذ ، واجتمعوا على الكيد للصنم ، وتسللوا في غفلة من عمرو إلى الدار ، فطرحوه في بعض الحفر ، وكان عمرو ، والصنم في الحفرة ، يحدث نفسه ويقول : لقد حفظت إلهي في بيتي ، وضمنت بهذا السيادة في بني سلمة ، والسدانة على أصنامهم ، وسوف أنصح لقومي أن يحمل كل واحد ربه إلى بيته ، يغسله ويطيبه ، ويعظمه كل صباح ومساء ، ويدين له بالطاعة والولاء

وفى الصباح رأى « عمرو » صنمه المقدس ، الذى كان يحلم به طول ليله ، منكبا على وجهه فى الحفرة ، وقد علاه الرغام ، فورم أنفه غضبا ، وثارت حفيظته ، ورفع الصنم من الحفرة وغسله وطيبه ثم قال ، وهو يربت على الصنم — : وحقك لو كنت أعلم من صنع بك هذا لأخزيته، ثم نظر إليه نظرة صارمة، فيها بشائر من نور الهداية ، لأنها أول الشك فى هذه العبادة ، ولأن فيها صرخة خافتة ضعيفة من العقل الذى خنقته الأكاذيب ، وألجمه التقليد ، ثم هب إلى سيفه وعلقه على الصنم وخاطبه قائلا : إن كان فيك خير فامتنع !

وجاء الفتيان فى الليل — يجرون كلبا وربطوه فى عنق الصنم ، وأخذوا السيف وانطلقوا ، وكأنهم أرادوا بربط هذا الكلب فى عنق الصنم ، أن يوقظوا بهذا الدرس الساخر عقلا وثنيا ، استعبده الخشب والحجر ، وكان درسا ناجحا مؤثرا ، فحين أصبح عمرو سار إلى صنمه فألفاه ملقيا إلى جانب الكلب فى الحفرة ، فهان فى فى عينه ، وصغر فى نفسه وقال :

تا لله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر فى قرن

ثم قام إلى الصنم وحطمه ، ودعا زوجه «هندا» وأمرها بأن توقده ، وتطبخ عليه ثم قال لها:اذهبي إلى أخيك عبد الله وابن جابر وقولى لهما : بأنى قد أولمت اليوم وليمة فإذا كان الليل فليغد إلى بيتى كل مسلم فى يثرب ، من بنى سلمة

قالت « هند » وقد عمها البشر ، واستخفها الطرب

حمدا لك يا إلهى ! فلقد أسبغت علينا النعم ، وصرفت عنا النقم ، وبدلت شقاءنا سعدا ، وظلامنا نورا ، وايم الله ياعمرو ما رأيت كاليوم أنسا وسرورا ، لقد أحببتك حبا ملك على نفسى مذ كنت تغدو إلى بيت أخى عبد الله ، وكان الحديث عنك يهز أوتار قلبى ، ثم لما صرت إليك ، كنت أزهو على أترابى بك ، لأنك سيد قومك ، وأكرم عشيرتك ، ولكن هذا كله أمام إيمانك اليوم ، قطرة من بحر ، وحصاة بين در ، فما أنت — الآن — بشر ، بل أنت ملك كريم

— ٣ —

وكرت الأيام ، وتتابعت على المسلمين أحداث ، وظفروا بأعدائهم فى بدر ، وأعملوا فى رقابهم السيوف ، وسقوهم كؤوس الموت الزؤام ، حتى كان « عمرو بن الجموح » يوما فى مصلاه ، مقبلا على ربه ، يقرأ القرآن ، مطمئن النفس ، هانئ القلب، فإذا بصديقه « عبد الله » يدخل عليه فرحا مستبشرا ، فتلقاه بالتحية والترحيب ثم قال له :

— ما وراءك يا عبد الله ؟ !

— لك البشرى يا عمرو فلقد ذهبت اليوم مع جمهرة من بنى سلمة إلى بيت رسول الله ، فقال لنا : « من هو سيدكم يابنى سلمة ؟ » فقال نفر منا : « هو الجد بن قيس على بخل فيه » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « وأى داء ادوأ من البخل ، بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح »

فقال رجل من إخواننا المهاجرين : صدقت يارسول الله ، لقد رأيته يوم بدر ، منقضا على الأعداء انقضاض الصقر على فريسته ؛ وكان يقبل على الموت ، إقبال الإبل العطشى على الماء القراح ، وكنت أرى فرسان قريش تفر من وجهه ، وتتقى ضرباته الشداد، حتى أصابته ضربة بتار فى رجله ، فجعل يمشى على الأخرى ، ويخوض الغمرات ببسالة وإقدام ، ورأيت من صبره ، يا رسول الله ، ما ملأ نفسى إعجابا

رأى ابنه معاذا فى إبان المعركة ، وقد أصابته ضربة على عاتقه طرحت يده ، فتعلقت بجلدة من جسمه حتى آذته ، وأجهده القتال، فقال له بصوت فيه حنان الأب وشجاعة المؤمن :« يامعاذ ضع قدمك على يدك ثم تمطى حتى تطرحها ، ودونك بعد هذا أعداء الله ... »

ولم يكد الرجل يتم حديثه ، حتى رأيت البشر يملأ وجه الرسول ، ويتلو قوله تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فهنيئا لك يا عمرو !!

وسمع عمرو حديث صاحبه عبد الله بقلب يفيض فرحا ، ويرقص طربا ثم قال : حسبى من الحياة — ياعبدالله — أن يرضى الله ورسوله عنى ، بعد أن حفتنى عناية السماء ، وأظلنى لواء محمد

— ٤ —

كانت الشمس قد أرسلت تباشيرها ، ونشرت خيوطها

الذهبية على مشارف المدينة ، وهضاب أحد ، حين سمع « عمرو » جلبة وتكبيرا ، وإذا مناد يقول : الصلاة جامعة ! حى على الجهاد ، فدعا زوجه « هندا » وأمرها أن تعد له سلاحه ، وأن تصاحبه إلى المعركة ، لتضميد الجرحى ، وإثارة الشاعر ثم قال لهما :

— أين أولادك يا هند ؟ !

— لقد أسرعوا إلى المسجد ياعمرو

— وهل لبسوا لأمتهم وتنكبوا سلاحهم ؟ !

لقد جهزتهم بيدى ، ووصيتهم أن يكونوا صفا واحدا وألا يفارقوا رسول الله وقلت لهم :

اعلموا — يا أبنائى — أنه لا بد لهذه الدعوة من وقود ، فكونوا أنتم وقودها ، ولا بد لها من ضحايا ، فكونوا أنتم أول ضحاياها ، واصبروا عند اللقاء ، واشتدوا على الأعداء ، واذكروا أن الجنة مثوى الشهداء الأبرار ، وأستودعكم الله

— حييت « يا هند » من أم ! ! بمثل هذا الإيمان ننتصر ، وبه تعلو راية القرآن وتنتشر ، والآن ركضا معى إلى الجنة ، إلى السعادة ، إلى الله

وفوجئ المسلمون فى المسجد بدخول الشيخ الجليل الأعرج « عمرو بن الجموح » متقلدا سيفه ، متنكبا قوسه وهو يقول : سوف نهد لهم حتى ينقلبوا على أعقابهم صاغرين ، أو يمرتوا بحد سيوفنا خاسرين

وسمع أولاد عمرو صوت أبيهم ، فأقبلوا نحوه ، وحاولوا منعه من الخروج إلى المعركة ، ولكنه راع المسلمين جميعا بإصراره على الجهاد ، قال له أبناؤه : (قد عذرك الله ولا حرج عليك! !) فحزن حزنا شديدا ، وآلى على نفسه أن يذهب ، وأتى رسول الله وكان فى جانب من المسجد، ووقف بين يديه وقال :

— يارسول الله ! إن بنى يريدون أن يحبسونى من الخروج ، فو الله إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه الجنة

فقال له رسول الله :

— أما أنت فقد أعذرك الله فلا جهاد عليك ! ..

فتطلع بعين كئيبة إلى السماء ، وقد انحدرت الدموع على خديه حتى ابتلت لحيته ثم قال بصوت تخنقه الحسرات : يارسول الله إنى أرى بعينى هاتين ، أن الشهادة منى قاب قوسين أو أدنى ، وأن أمنيتى الكبرى أن ألقى ربى ، تزملنى الدماء ، فلا تردنى خائبا ، روحى لك الفداء

وحين رأى رسول الله إلحاف عمرو فى الطلب ، ورغبته الملحة فى الجهاد ، التفت إلى بنيه وقال لهم : (لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة ...) ولم يكد يسمع قول الرسول صلى الله عليه وسلم حتى استقبل القبلة ، وقال على مسمع من الناس جميعا (اللهم ارزقنى الشهادة ، ولا تردنى خائبا إلى أهلى) وامتلأت عيناه بالدموع ، وساده صمت خاشع ، ثم نظر إلى الرسول وقال له : (يا رسول الله أرأيت إن قاتلت فى سبيل الله حتى أقتل أمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة ؟) فطمأنه رسول الله وابتسم وبان السرور فى محياه، وإذا بعبد الله بن عمرو ومعه ابنه جابر يقبلان، فقال رجل من المسلمين لعمرو ، هذا صاحبك عبد الله قد أقبل فطب نفسا ، وتعانق الصديقان عناقا امتزج فيه قلبان ، وانسجمت روحان ، وقال عبد الله لابنه جابر : (ياجابر إنى أرجو أن أكون أول من يصاب، فأوصيك بينائى خيرا)

ثم نظر إلى صديقه الحبيب عمرو وقال له بصوت يسيل رقة وعطفا ، وكأنه يودعه الوداع الأخير :

— يا عمرو أتدرى أين يكون اللقاء بعد الآن ؟ !

— أرجو أن يكون فى دار البقاء فى مقعد صـــدق عند مليك مقتدر

— ٥ —

— وثار النقع ، وصهلت الخيل ، ولمعت السيوف ، وحمى الوطيس فى أحد ، ونشب القتال ، والتحم الفريقان ، وأقبلت على رسول الله قائد المسلمين الأكبر ، كتيبة متراصة من المشركين ، قد احمرت منهم الأحداق ، وثارت فى نفوسهم الأحقاد ، فوقف «عبدالله بن عمرو» فى وجه المشركين، يفرق صفهم ، ويفل عزمهم، ويناضل عن الرسول ، وينافح عن الإسلام ، ويحطم الفرسان ،

ويجندل الشجعان، حتى صدق ظنه وأكرمه الله فكان أول شهيد في المعركة

واستلأم الأعداء ، وأخذوا من المسلمين بالثأر ، وانتقموا شر انتقام ، فمثلوا بعبد الله الشهيد الأول في أحد أشنع تمثيل ، جدعوا أنفه ، وقطعوا أذنه ، ولم يتركوه حتى هشموا عظمه ، وشوهوا جسمه ، ولما سجى بين يدى رسول الله أقبل ابنه جابر ، وكشف الثوب عن وجه أبيه ، ثم أكب عليه يقبله ويبكى

وسمع المسلمون من بعيد صوت امرأة نادبة ، فشقوا لها الصفوف فإذا هى « هند » تبكى أخاها ، وتوأم روحها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ابكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها)

وانصرفت هند وصورة أخيها ماثلة أمامها ، وملائكة السماء تظله بأجنحتها ، وبشرى رسول الله تطأمن نفسها ، ولكن الدموع الحزينة كانت تملأ مقلتيها ، ثم وقفت واجمة فزعة ، وغامت الدنيا فى وجهها ، وأظلم الكون أمامها ، وجمدت الدموع فى عينيها ، فقد رأت — ويالهول ما رأت ، أبصرت زوجها « عمروا » وابنها « خلادا » مضرجين بالدماء ، وقد فاضت منهما الروح إلى السماء ، فهدها المصاب الرهيب ، وأشجاها الدم الصبيب ، وغرقت فى لجة الأسى ، وإذا بصوت الرسول الحبيب يخاطب المجاهدين فيقول (والذى نفس محمد بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح) فسح هذا الصوت ما بنفسها من أشجان ، وكان بلسم جراحها ، وعزاء مصابها ، فاحتسبت مصيبتها عند ربها ، وتقدم رسول الله من الشهيد الباسل ، وكشف عن وجهه وقال له : (كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة)

— ٦ —

وعند الأصيل الكئيب، وقد مالت الشمس للغروب ، وأقبل الليل ينشر أمامه رداءه الأسود القاتم . كانت « هند » المفجوعة، تتوكأ على عصاها، وتجر وراءها بعيرا حملت عليه شهداءها، زوجها وأخاها وولدها ، ميممة شطر المدينة ، لتدفنهم هناك قريبا منها ، فرأتها السيدة عائشة وكانت تستقرئ المطاش ، فسألتها عن الخطب الذى حل بالمسلمين ، فقالت لها :

— يا أم المؤمنين ! أما رسول الله فسالم ، وكل مصيبة بعده هينة ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

— ومن هؤلاء على البعير ؟

— أخى عبد الله وولدى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح

وبينما السيدة عائشة تعزيها فى شهدائها ، جاء صائح من خلفها يقول (أمر رسول الله بأن يدفن الشهداء فى موضع استشهادهم ، فاتجهت شطر أحد ، وعادت بشهدائها حتى وقفت أمام رسول الله فتلا قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقـــون) ثم نظر إلى عمرو وعبد الله وقال (كفنوا هذين المتحابين فى الدنيا فى كفن واحد ، واجعلوهما مع خلاد فى لحد واحد ، وزملوهم بجراحهم فإنى أنا الشهيد عليهم ...)

دمشق — المزة **عمر عودة الخطيب**

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى

صور فيها : عواطف الشباب فى وقت نزوعه إلى الحب وولوعه بالجمال واتحاده مع الطبيعة ... وقد قال عنها لصديقه (أكيرمان)

« كل امرئ يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن (آلام فرتر) إنما كتبت له خاصة »

ترجمتها العربية تتفق مع أصلها فى قوة الأسلوب ودقته وأناقته وجماله ... وهى مثال للترجمة الأمينة التى تنقل الصورة والفكرة وما يقوم بهما من الروح والخيال والعاطفة ...

طبعت خمس مرات وثمنها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد